

الباب الرابع

فوائد القوة الإنسانية لحياة الإنسان

الإنسان خلق خاص ميزهم الله عن مخلوقاته بخصائص رائعة. ويلحظ من البيانات الآتية من أنواع القوة التي تمكن في نفس الإنسان أن فيها فوائد مهمة ما يصادف من أهداف خلقهم ما يأتي أنهم:

أ. عبيد الله

وليس من شك في أن عبادة الله هي الأصل والأساس إذ يقول سبحانه وتعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (سورة الذاريات [067، 51]: 56). قال ابن كثير في تفسيره: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لا احتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس "إلا ليعبدون" أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً. وهذا اختيار ابن جرير وقال ابن جريج: إلا ليعرفون، وقال الربيع بن أنس "إلا ليعبدون" أي إلا للعبادة، وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله" (سورة لقمان [057، 31]: 25) هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك، وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون¹.

¹ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم (القاهرة: دار الحديث، 1993)، ط 7، ج 4، ص 239.

إن مهمة الإنسان في هذا الوجود ورسالته في هذه الحياة هي معرفة الله تعالى وعبادته جل وعلا هي: أن يعبد الله الذي خلقه فسواه فعدله وشق سمعه وبصره ونفخ فيه من روحه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، والله خلق الإنسان ليطيعه وليمثل أمره ويجتنب نهيه، ويقيم دينه في الأرض فمن فعل ذلك إيماناً واحتساباً كان عابداً لله سبحانه وتعالى . لأن العمل يكون عبادة لله بشرط الإيمان والاحتساب لا عادة ولا مجاملة أو مسايرة للمجتمع.

والعبادة لله التي خلق الإنسان لأجلها هي: الالتزام بما شرعه الله ودعا إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمراً ونهياً تحليلاً وتحريماً فهذا هو الذى يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله سبحانه وتعالى . أما أن يطيع الإنسان الله فيما يناسب ذوقه ويخالفه فيما لا يناسب هواه، فهذا ليس عابداً لله بل هو عابد لهواه يقول تعالى في مثل هؤلاء: " فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ " (سورة القصص [049، 28]: 50)

وللعبادة من حيث العموم والخصوص نوعان:

- أ) عبادة عامة، وهي تشمل عبودية جميع الكائنات لله عز وجل، يدخل فيها المؤمن والكافر والإنسان والحيوان، بمعنى: أن كل من في الكون تحت تصرف الله وقهره، قال عز وجل: "إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً" (سورة مريم [044، 19]: 93).
- ب) عبادة خاصة، وهي عبادة المؤمنين لربهم، وهي التي عناها الله عز وجل بقوله: "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً" (سورة النساء [089، 4]: 36). وهذه هي العبودية التي تحصل بها

النجاة يوم القيامة.

والعبادة من حيث تعلقها بالعباد وهي:

أ) عبادات اعتقادية:

وهذه أساسها أن تعتقد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي ينفرد بالخلق والأمر ويبيده الضر والنفع ولا يشفع عنده إلا بإذنه، ولا معبود بحق غيره.

ومن ذلك أيضاً: الاعتقاد والتصديق بما أخبر الله تعالى عنه، كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر في آيات كثيرة كقوله عز وجل: "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين" (سورة البقرة [2، 087]: 177).

ب) عبادات قلبية:

وهي الأعمال القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله تعالى وحده، فمنها:

الحبة التي لا تصلح إلا لله تعالى وحده، فالمسلم يحب الله تعالى، ويحب عباده الذين يحبونه سبحانه، ويجب دينه، قال الله عز وجل: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله" (سورة البقرة [2، 087]: 165).

ومنها التوكل: وهو الاعتماد على الله تعالى والاستسلام له، وتفويض الأمر إليه مع الأخذ بالأسباب، قال الله عز وجل: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين" (سورة المائدة [092، 5]: 23).

ومنها الخشية والخوف من إصابة مكروه أو ضرر، فلا يخاف العبد أحداً غير الله تعالى أن يصيبه بمكروه إلا بمشيئة الله وتقديره، قال الله عز وجل: "فلا تخشوا الناس واخشون" (سورة المائدة [092، 5]: 44).

(ج) عبادات لفظية أو قولية:

وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقدها ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ أَنْ أُفَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلُّوا صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتَنَا وَدَبَّحُوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) رواه البخاري.

دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، سواء كان طلباً للشفاعة أو غيرها من المطالب، قال الله عز وجل: "ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين" (سورة يونس [051، 10]: 16).

(د) عبادات بدنية:

كالصلاة والركوع والسجود، قال الله عز وجل: "فصل لربك وانحر" (الكوثر: 2). ومنها الطواف بالبيت، حيث لا يجوز الطواف إلا به، قال عز وجل: "وليطوفوا بالبيت العتيق" (سورة الحج [103، 22]: 29).

ومنها الجهاد في سبيل الله تعالى، قال عز وجل: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً" (سورة النساء [089، 4]: 74). وكذلك وسائر أنواع العبادات البدنية كالصوم والحج.

5) عبادات مالية:

كإخراج جزء من المال لامتنال أمر الله تعالى به، وهي الزكاة. ومما يدخل في العبادة المالية أيضاً: النذر، قال الله عز وجل: "يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً" (سورة الإنسان [098، 76]: 7).

إن أنشطة الإنسان وأعماله تندرج كلها ضمن المعنى الواسع للعبادة، إذا كانت على منهج شرع الله، واقتربت بنية صالحة، إذا طهر الإنسان كلامه من الفحش والزور والأذى واللغو، وتكلم بالصدق والإحسان، وفعل ذلك كله لأن الله أمر به، كان ذلك عبادة.

وإذا أطاع الله تعالى ظاهراً وباطناً في أعماله التجارية والاقتصادية، وطبق أحكامه في معاملاته مع والديه وأقاربه وأصدقائه، ومع كل الذين يتعامل معهم، كان كل ذلك عبادة.

وإذا أعان فقيراً أو محروماً، أو أطعم جائعاً وأعان منكوباً²، وفعل كل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فذلك عبادة. وباختصار كل أعمال المؤمن عبادة، إذا كانت مطابقة لشرع الله، وكانت بنية طاعة الله وابتغاء مرضاته.

واستدل على أن مثل هذه الأعمال من أفضل العبادة بقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يبين فضل الإصلاح بين المتخاصمين: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، وزاد في رواية: لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين"². (رواه أبو داود)

وملاحظ بحق أن القرآن يطلق على السعي في مناكب الأرض بطلب الرزق تسمية جميلة، توحى برضا الله على ذلك السعي فسماه "الابتغاء من فضل الله"، مثل قوله تعالى: "فإذا قُضيتِ الصَّلَاةُ فانثشروا في الأرضِ وابتغوا من فضلِ الله" (سورة الجمعة [110، 62]: 10). وقوله سبحانه: "ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم" (سورة البقرة [087، 2]: 198). والقرآن الكريم يقرن بين المسافرين لطلب الرزق والمجاهدين في سبيل الله في سياق واحد، كما في قوله تعالى: "عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يقاتلون في سبيلِ اللَّهِ" (سورة المزمل [003، 73]: 20).

² أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، (بيروت: دار الفكر، 1979)، ط 3، ج 13، ص 261 - 262.

وأن من روعة الإسلام أن تشمل العبادة الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية، فالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته، وما كان من هذا القبيل، يدخله الإسلام في دائرة العبادة الفسيحة بشرط واحد هو النية، فالنية هي المادة السحرية العجيبة التي تضاف إلى المباحات و العادات فتصنع منها طاعات وقربات"³.

فالعبادة تَسَعُ الحياة كلها وتتنظم أمورها قاطبة من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

من البيان السابقة يتضح لنا "إن عبادة الله ليست محصورة في الصلاة والصيام والحج، وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء، كما يتبادر إلى فهم كثير من أبناء المسلمين، إذا دُعوا إلى عبادة الله، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد قاموا بحق الألوهية، وأدّوا واجب العبودية لله كاملاً، إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام، على منزلتها، إنما هي جزء من العبادة التي يريد الله من عباده. والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، دائرة رحبة واسعة."⁴

والاية المناسبة عن العبادة قول الله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (سورة الذاريات [067، 51]: 56)، قد دلت على أن هناك غاية معينة لوجود الجن والإنس. ووظيفة

³ يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام (مطبعة المدني: مصر، 1995)، ط 24، ص 63 - 64.

⁴ نفس المرجع ص 52.

محددة هي العبادة، أوهي العبودية لله تعالى. ومن هذه الآية يتبين كذلك أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر التعبدية. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، في الصلاة والصيام والأذكار.. والله تعالى لا يكلفهم هذا، وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم.

فالإنسان مكلف بالخلافة في الأرض، وهي تقتضي ألواناً كثيرة من النشاط الحيوي في عمارة الأرض والتعرف إلى طاقاتها، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها، كما تقتضي الخلافة القيام على تنفيذ شريعة الله في الأرض.

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة، التي هي غاية الوجود الإنساني، أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة عن الله داخلية في مدلول العبادة قطعاً، وأن العبادة تتمثل في أمرين رئيسين:

الأول، هو استقرار معنى العبودية في النفس، أي الشعور بعبودية الإنسان لربه، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع، وهذا الاعتبار، ليس في هذا الوجود إلا رب واحد، والكل له عبيد.

والثاني، هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل الدنيوي كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد، والرضا بقدر الله، كلها عبادة وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها.

وإن من كمال الله تعالى أنه ما خلق شيئاً عبثاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما يخلق لحكم بالغة، ومصالح راجحة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها. يقول الله سبحانه وتعالى:

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ" (سورة الأنبياء [073، 21]: 16)

والإنسان من جملة ذلك الخلق، ولولا أنه خلقه لتلك الغاية السامية التي هي عبادته، لكان خلقه له عبثاً وسدى، تعالى الله عن ذلك، وقد نزه الله نفسه عن ذلك، فقال: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ" (سورة المؤمنون [074، 23]: 115 - 116).

كما أنه لو خلق الإنسان لغير العبادة، لكان مثل البهائم يعيش هملاً يأكل ويشرب ويتكاثر، ولا يخفى ما في ذلك من الإهانة للإنسان نفسه، والمنافاة لحكمة العليم الحكيم.

فالخاص أن الله تعالى ما خلق الإنسان عبثاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما خلقه لعبادته والتقرب إليه سبحانه.

وأن العبادة المقصودة بحكم النص القرآني أن الإنسان العابد لا بد أن يكون عاملاً منتجاً، باعتبار أن العمل الجاد هو السبيل لإسعاد الفرد والجماعة. يقول تعالى "فإذا قضيت الصلاة

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون" (سورة الجمعة [110]، [62]: 10).

ب. خليفة الله في عمارة الأرض

إن الخلافة والعمارة هي من أهداف خلق الله للإنسان. اختلف العلماء في معنى الخلافة على أقوال فقال بعضهم :

(أ) أي خليفة في الملك والحكم , والسلطان والولاية على الناس.

(ب) وقال آخر أي : خليفة ساكناً وعامراً يعمرها ويسكنها.

(ج) قال بعضهم : خليفة يخلف بعضهم بعضاً , وقيل غير ذلك.

والراجح من الأقوال هو: القول الثالث , وهو الحق في جانب الحق جل وعلا, فإن الذي

يحتاج إلى خليفة يخلفه أو ينوب عنه إنما هو الفاني العاجز تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

هذا وقد استدلل القرطبي . رحمه الله . وغيره من العلماء بهذه الآية على وجوب نصب

الخليفة والأمام ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه, ويقطع النزاع , وينصر المظلوم من الظالم ,

ويزجر من تعاطى الفواحش . وهذا غاية التكريم.

وهنا أيضاً يتعرّف على المعنى الحقيقي للخلافة كما ذكر في كتاب الله "إني جاعل في

الأرض خليفة", وهنا نتوقف عند معنى الخلافة التي أرادها الله عندما قال في سورة البقرة:

((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)) (سورة البقرة [087، 2]: 30)

فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده، وتكل إليه أبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات وتسخير هذا كله بإذن الله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه، وإذن فهي منزلة عظيمة منزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذي شاء له خالقه الكريم، لقد خفيت على الملائكة حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها وفي تنمية الحياة وتنويعها وفي تحقيق إرادة الله على يد خليفة الله في أرضه⁵.

الإنسان في عرف الإسلام هو الخليفة في الأرض، قال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)) (سورة البقرة [2، 087]: 30). خلق ليعبد الله: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) (سورة الذاريات [51، 067]: 56)

والعبادة تشمل كل نشاط الإنسان في الأرض: ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) (سورة الأنعام [6، 112]: 162).

ومن بين العبادة المطلوبة هو عمارة الأرض ((هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)) (سورة هود [11، 052]: 61).

ومن بينها السعي في الأرض وابتغاء فضل الله ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا)) (سورة الملك [67، 077]: 15).

فهنا نبسط الكلام عن العمارة لغة واصطلاحاً.

⁵ سيد قطب، في ظلال القرآن (بيروت: دار الشروق، 1994)، ط 23، ج 1، ص 56 – 57.

فعمارة الأرض لغة: عمر المنزل بأهله كان مسكونا بهم، فهو عامر، وعمّر الأرض: بنى عليها وأهلها، واستعمره جعله يعمره، والعمارة نقيض الخراب، كما في الوسيط⁶.

واصطلاحاً : نسبة إلى التعمير والعمران، بمعنى استمرارية الوظيفة الإنسانية العامة للإنسان، الذي حمل الأمانة عندما استخلفه الله سبحانه وتعالى في الأرض، كي يعمرها ويستخرج ما فيها بجهد وعمله لتنعم بخيراتها الأجيال اللاحقة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. يقول الله في كتابه العزيز: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" (سورة البقرة [087، 2]: 30)، ويقول سبحانه: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" (سورة هود [052، 11]: 61) كما يقول: "ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم". (سورة يونس [051، 10]: 14).

وخلافة الله في أرضه إنما تكون بعمارتها وصناعة النهضة والحضارة فيها، ولكنها الحضارة الموصولة بالله تعالى، والتي ينشئها الإنسان في تعبيد الناس لرب العالمين، فالإنسان هو خليفة الله تعالى في الأرض لإقامة شرع الله ودينه، وتطبيق أحكامه، والسير على منهجه، ومن ذلك "إقامة الحق، والحكم بالعدل، والقضاء بالقسط، فالإنسان هو المكلف في إمضاء أحكام الله تعالى وأوامره"، يقول ابن جرير الطبري: "إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم، ومن قام مقامه في طاعة الله تعالى، والحكم بالعدل بين خلقه."

⁶ جمهور مصر العربية، المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية، مادة "عمر"، (مصر: دار الشروق الدولية، 2004)، ط3،

فإن العمارة في كتاب الله نوعان: عمارة إيمانية وعمارة مادية، وكلاهما مطلوبان، ولكن أشرف هذين النوعين -بل هو الذي جاء مصرحاً بطلبه- إنما هو عمارة الأرض بالإيمان، كما قال تعالى: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (سورة التوبة [113، 9]:18).

فهذه هي أشرف مراتب العمارة، والتي حرم منها من لم يستنبروا بنور النبوات كما قال تعالى: "مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ" (سورة التوبة [113، 9]:17).

فمن لم يعمر الأرض بالإيمان فلا زال في ظلمات وتيه وانحطاط ولم يبلغ التنوير الحقيقي. ومما يبين هذا ويوضحه أن العمارة ضدها "الخراب"، وقد بين تعالى أن أقبح أنواع الخراب هو خراب الأرض من الإيمان، كما قال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا" (سورة البقرة [087، 2]:114).

وتعمير الأرض هدف من أهداف خلق الإنسان، وتعمير الأرض هو من جملة العبادات التي فرضها الله على المؤمن، غير أن تحقيق العبودية لله جل وعلا في الأرض لا يتم إلا بجيافة مقومات الخلافة التي جعلها الله سبباً لاستمرار الحياة وبقائها.

والإسلام يدعو إلى تنمية المجتمع وأن نوازن بين الدنيا والآخرة وإلى الكسب الحلال الذي نعمر به دنيانا ونفوز بالجنة في الآخرة. وهذه هي العبادة الحققة وهي جوهر الإسلام.

وكما أن الدين دعوة للتراحم والمودة فإنه كذلك دين وسط يدعو للعمل والإنتاج، ليعمر الكون، ويعيش الإنسان في خير وسعادة عندما يعمر نور الإيمان قلبه، ويحصن نفسه ويهذب أخلاقه، فيحيا في عمله. فالله سبحانه وتعالى يقول وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة التوبة [113، 9]:

(105)

وفي جهة أخرى حض الإسلام عموماً على الضرب في الأرض (أي السفر التجاري) والسعي الحثيث في مناكبها، والتنقيب عن موارد الرزق في البر والبحر، والإنشاء والتعمير وتوفير أسباب المعيشة والتنافس المشروع في كسبها، والتسابق في الخيرات كلها دنيوية أم أخروية؛ لأن معنى استخلاف الله للبشر وخلافتهم عن الله في الأرض يتطلب طاعة المستخلف طاعة كاملة، ولأن السيطرة على الأرض بتمكين الله للبشر تقتضي استغلال كل أوجه الخير فيها من استنبات الزرع، وإحياء الضرع، وتشجير الأشجار، واستخراج المعادن والزيوت، واستثمار المناجم والمحاجر والمقالع وإقامة المساكن والمصانع والقرى والمدن حتى يعرف بكل ذلك ونحوه عظمة الله وقدرته؛ لأنه هو مانح الحياة لكل الموجودات.

هذا هو الإسلام الذي استخلف الله تعالى آدم عليه السلام وذريته في الأرض، والذي استخلف آدم به ذريته، وظل بنو آدم يستخلف بعضهم بعضاً إلى يومنا هذا، وسوف يبقون كذلك إلى قيام الساعة، فكل إنسان خليفة لمن سبق من أسلاف، ومستخلف لمن لحق به أو انحدر عنه من ذرية حتى تأتي نفخة الصور التي يفني علي دثرها كل حي، فينتهي هذا الوجود الدنيوي بالكامل، وينتقل الخلق إلى الحياة الآخرة بخلود لا موت فيه.

وفي رحلة الاستخلاف تلك ينجو من التزم بشرع الله وأوامره، ويهلك من انحرف عن الهداية الربانية، وهذا هو الهدف من عملية الاستخلاف في الأرض الذي خفي علي علم الملائكة فجاءهم الرد الإلهي المباشر: ﴿... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة [2: 087، 30]).

وقد فصل القرآن الكريم هذا الأمر في مقام آخر بقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (سورة الإنسان [098، 76]: 1-3).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (سورة الأحزاب: 72 - 73).

وقد أعطي ربنا تبارك وتعالى الإنسان عقلاً يفكر به، ويميز الخير من الشر، ويفصل الحق من الباطل، كما أعطاه الإرادة الحرة التي يختار بها ويدع، ويفعل ويترك، ووهبه كل المقومات اللازمة لحمل أمانة التكليف، ومن هنا وجب حسابه، وتحددت أسباب استخلافه في الأرض من أجل الابتلاء والاختبار.

فالإنسان مؤتمن علي ملك الله في الأرض، ومسئول أمام الله تعالى عن أمانته، ومطالب بعبادة الله بما أمر وبذلك أصبحت عمارة الأرض وعبادة الله تعالى بما أمر وجهين لعملة واحدة هي صك الاستخلاف في الأرض الذي وقعه آدم وذريته في عالم الذر الذي قال عنه الله تعالى: ﴿وَإِذْ

أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿سورة الأعراف [055، 7]: 172﴾.

ويقوم مفهوم عمارة الارض في الاسلام على شرط الخلافة في الارض . قال تعالى : " وإذ

قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" (سورة البقرة [087، 2]: 30)

وتبعية الاستخلاف تعني تسخير الموارد الطبيعية (الأرض) للانسان ليعمل على انتاج

السلع والخدمات لخدمة الخلق المستخلفين . وتمكين الانسان من هذه السلع والخدمات ، تمكين

استعمال أو ملكية انتفاع ، قال تعالى "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ" (سورة الأعراف [055، 7]: 10). وعمارة الارض لا تقوم إلا بالعمل لان العمل هو

شرط الملكية . وكل عمل ابن آدم محاسب عليه. قال تعالى "وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ" (سورة الأعراف [055، 7]: 129).

ويتبع الاستخلاف أيضاً اتباع الضوابط التي وضعتها الشريعة لتنظيم شئون الانتاج والتي

يمكن حصرها في الآتي :

أ) الايمان بأن الله هو المالك الحقيقي لهذه الارض وهو المتصرف فيها كيفما شاء والإنسان

مستخلف عليه . فعليه استخدامها وتنميتها بالقدر الذي يمكنه من عمارة الأرض التي

استخلفه الله فيها وأمره بعمارته قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

(سورة الأنعام [112، 6]: 165) جاء في تفسير ابن كثير: (أي جعلكم تعمرونها جيلاً

بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف .⁷ كقوله تعالى: "وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ" (سورة الزخرف [43، 063]: 60)، وكقوله تعالى: "وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ .." (سورة النمل [27، 048]: 62) . وقوله عز وجل: "عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ" (سورة الأعراف [7، 055]: 129).

ب) الايمان بان الله سخر للإنسان ما في الكون لخدمة الإنسان ولمزاولة النشاط الاقتصادي قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ* وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" (سورة إبراهيم [14، 072]: 32 - 34). جاء في تفسير القرطبي: (الله الذي خلق السموات والأرض أي أبدعها واخترعها وأنزل من السماء . أي من السحاب ماء فخرج به من الثمرات أي من الشجر ثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين أي في اصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره . والدؤوب مرور

⁷ المرجع السابق، تفسير ابن كثير ، ج 2 ، ص 200 .

جاء في تفسير الزمخشري : جعلكم خلائف الارض لأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الأمم أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً أو هم خلفاء الله في أرضه بملكوتها ويتصرفون فيها ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الشرف والرزق ليلوكم فيما آتاكم من نعمة المال والجاه كيف تشكرون تلك النعمة وكيف يصنع الشريف بالوضع والحر بالعبد والغني بالفقير إن ربك سريع العقاب لمن كفر نعمته وإنه لغفور رحيم لمن قام يشكرها . أنظر الكشف ج 2، ص 80.

الشيء في العمل على عادة جارية وقيل دائبين في السير امتثالاً لأمر الله والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران . روى ابن عباس : وسخر لكم الليل والنهار أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار كما قال : ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله . وقوله تعالى وآتاكم من كل ما سألتموه أي اعطاكم من كل مسئل سألتموه . وإن تعدوا نعمة الله أي نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدّها ولا تقوموا بحصرها لكثرتها . وهذه النعم من الله فلم تبدلون نعمة الله بالكفر وهلا استعنتم بها على الطاعة إن الإنسان لظلوم كفار) ⁸ .

(ج) أن يؤدي الخلق حقوق المال للمجتمع في صورة الصدقات المفروضة ، وعلي رأسها الزكاة والصدقات التطوعية والكفارات وغيرها من النفقات، تحقيقاً لعدالة التصرف في المال وإقامة للتكافل الاجتماعي . والحديث عن النبي (ص) قال : " اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله " ⁹

(د) 4-إستغلال الموارد في المساعدة الانسان على عبادة الله تعالى . فعمارة الارض لا تركز على الحاجات المادية فقط . وانما هنالك الحاجات الروحية التي هي أصل الحياة قال تعالى : " وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون * لا أريد منهم رزق ولا أريد أن يطعمون " (سورة

⁸ تفسير القرطبي - مرجع سابق - ج 9 ، ص 366 - 367 . وجاء في تفسير الزخشي : لظلم يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة بجمع ومنع الإنسان للجنس فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه _ الكشاف ج2، ص523.

⁹ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007)، ط 3، ج 1، ص 482.

الذاريات [067، 51]: 56 - 57). ولقد جاء في تفسير القرطبي : ليعبدون ليدلوا ويخضعوا ويعبدوا . ما أريد منهم من رزق من صلة أي رزقا بل أنا الرزاق والمعطي . وقال بن عباس وأبو الجوزاء أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم إن الله هو الرزاق .¹⁰ فعمارة الأرض توازن بين متطلبات الروح وحاجات الجسد لضمان حياة فاضلة مقبولة عند الله تسهل الطريق الى الجنة .

هـ) تنمية المال عن طريق السعى والضرب في الارض وابتغاء من فضل الله قال تعالى : " اذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله " (سورة الجمعة [110، 62]: 10) . جاء في تفسير القرطبي : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض هذا أمر بإباحة ، كقوله تعالى: " وإذا حللتم فاصطادوا.. " (سورة المائدة [092، 5]: 2) يقول إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم وابتغوا من فضل الله ، أى من رزقه .¹¹

و) وعلى ضوء ما تقدم يمكن توضيح العمارة في الاسلام بأنها هي : " إستغلال المجتمع لخيرات الأرض (النعم التي سخرها الله تعالى له) بالعمل الصالح تنفيذاً لشرط الخلافة والتمكين ، وتحويلها إلى سلع وخدمات لإشباع الضروريات عند حد الكفاية لكافة أفرادها عبر تشغيل كامل وتوزيع عادل " .

¹⁰ المرجع السابق، تفسير القرطبي، ج17، ص56.

¹¹ المرجع السابق، تفسير القرطبي، ج18، ص108.

